الإستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام 1849

أ.ة.جيلالي حورية

انتهج الاستعمار الفرنسي منذ وطئت أقدامه أرضنا الطاهرة شتى أنواع الجرائم التي يندى لها الجبين وتقشعر لها الأبدان وكان الهدف منها واضحا وهو ردع أي مقاومة وجعل زعمائها عبرة للباقين. في هذا الإطار جاء هذا الموضوع الذي نسعى من خلاله إلى إبراز الإستراتيجية الاستعمارية المطبقة للقضاء على المقاومة الشعبية التي اندلعت بواحة الزعاطشة من 16 جويلية إلى 26 نوفمبر 1846 حيث دامت أربعة أشهر وعشرة أيام والتي تعرضت لمجزرة مثلث بربرية الغزاة الفرنسيين أحسن تمثيل.

الأهمية الإستراتيجية لمنطقة الزعاطشة: تمتد بلاد الزيبان من الحدود التونسية شرقا إلى هضاب أولاد نايل غربا وتتصل من هذه الجهة بوادي ريغ وفي هذه المنطقة تنتشر واحات النخيل وأهمها واحة بسكرة.

تحتوي هذه الواحات على بساتين النخيل، وقراها محصنة بسور أو خندق، فقد كانت واحة الزعاطشة مثلا محصنة بسور وخندق. تميزت منطقة الزيبان بالثراء والغنى بفضل محاصيلها المختلفة التي جعلتها محط أطماع المستعمر.

كانت هذه المنطقة تابعة للأمير عبد القادر حيث كان يتم تعيين شيخها من طرف خلفاء الأمير، وعلى اثر تقلص نفوذه فشل في نصرة شيخه بوزيان الذي كان قد تم تعيينه، وكان أحمد باي قد حاول السيطرة عليها بهدف الحصول على موارد مالية جديدة، وبعدها تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على منطقة الزيبان اسميا في أوائل 1844، وبعد احتلالهم لباتنة جعلوا من بسكرة النقطة العسكرية الأكثر توغلا في الصحراء وعينوا على رأسها الضابط سان جرمان.

-التعريف بشخصية الشريف بوزيان

هو ابن عم حسان بن عزز الذي كان قائدا للمقاومة في الجنوب قبل ظهور أحمد بن الحاج الصادق[1] اسمه الحقيقي عبد الرحمن بن زيان[2] وهو من أعراش وادي عبدي بالأوراس كان يعمل ساق[3] ثم عين نائبا للأمير عبد القادر بمنطقة الزاب الظهراوي[4] بالعاصمة حيث عينه البركاني شيخا للزعاطشة[5]، كان الشيخ بوزيان مقدما للطريقة الدرقاوية حيث تؤكد غالبية المصادر أنه كان مرابطا ورجل دين، تميز بقدراته ومبادراته[6].

-الظروف التي ظهر فيها الشيخ بوزيان

لم يكن استسلام الأمير عبد القادر سوي بداية لثورات أخر بدأت تنشب في مناطق عدة وبقيادات مختلفة فعلى اثر القضاء على ثورة الشريف بومعزة بالحضنة بدأت ثورة بوزيان الذي اعتمد ه والأخر على الجانب الديني في الحصول على الدعم الشعبي. في هذه الظروف كانت الأوضاع في فرنسا مضطربة حيث تميزت بانتشار الثورة بها والانتقال من الحكم الملكي إلى الجمهوري وبدأت أخبار هذه الأحداث تصل إلى الجزائريين الذين حاولوا استغلالها للتخلص من الوجود الفرنسي.أما بالنسبة للسكان بشكل عام فقد أرهقتهم سياسة الاستعمار وخاصة منهم القبائل التي تعرضت للهجمات نتيجة لمساندتها لهذا القائد أو ذاك، أو لرفضها الخضوع للسيطرة الاستعمارية ككل.هذا عن الجزائر عامة أما عن بسكرة والزيبان فقد زادت فيها النزاعات المحلية بين أسرتي (فرحات بن سعيد) وابن قانة التي أدت إلى معاداة فرحات بن سعيد للحاج احمد ومحاولة هذا الأخير التعاون مع أي شخص ضد الحاج أحمد وابن قانة، في هذه الظروف، وتغذية لروح النزاع قامت السلطات الفرنسية بتعيين بوعزيز بن قانة خليفة بالزيبان سنة 1839 مما أدى إلى تحول النزاع بالمنطقة من نزاعات عائلية إلى نزاعات سياسية بين المقاومين والموالين لفرنسا.

ولم تكن منطقة الزيبان لتعرف الهدوء، إذ رغم المحاولات الفرنسية إخفاء الثورات بها، إلا أنها كانت في كل مرة تضطر إلى القضاء على حركات التمرد،

ففي سنة 1846 مثلا ظهر الشريف أحمد بن بلقاسم الذي هزم القوات الفرنسية هناك، وهاجم قوات العد والمتمركزة في بادس والخنقة[7]

وهكذا فقد كانت الأوضاع بالمنطقة تمثل أرضية خصبة لإعلان الثورة والجهاد شد الوجود الفرنسي. وه والعامل الذي سيركز عليه الشيخ بوزيان في ثورته.

-أسباب الثورة:

كان السبب المباشر لاندلاع هذه الثورة ه وقيام السلطات الفرنسية برفع الضريبة المفروضة على أشجار النخيل دون مراعاة الوضعية السيئة للسكان[8] حيث يذكر louis De Baudicour في كتابه La Guerre Et Le Gouvernement بأن الضرائب كانت تفرض على كل مائة نخلة 10 وكانت النخيل التابعة للمؤسسات الدينية والعائلات الأرستقراطية الحاكمة معفية من هذه الضرائب [9] ومع ذلك فان هناك من يستبعد كون الضرائب هي السبب الحقيقي لهذه الثورة ذلك أنها اندلعت بعد فرضها بثلاثة أشهر [10]، أما عن بقية الأسباب والتي رجحها الفرنسيون لأبعاد التهمة عنهم فتمثلت في انتشار التذمربين أوساط الجزائريين الرافضين للسيطرة الأجنبية.

-حصار الزعاطشة

سنة 1833 كان أحمد باي قد أخضع كل الواحات المحيطة ببسكرة ما عدى واحة الزعاطشة التيتمكن الشيخ بوزيان من حمايتها ومنع الباي من السيطرة عليها.هذا ماجعل الشيخ بوزيان يتمتع بنفوذ كبير في المنطقة[11].

كانت أولى خطوات الشيخ بوزيان مهاجمة ثكنة العروشبين سكيكدة وقسنطينة بهدف إرباك قوات العد وإذ سرعان ما توجه هيربيون Herbillon قائد مقاطعة قسنطينة إلى سكيكدة لمواجهة الثوار[12]. وبعد فترة قصيرة تم إعلان قيام الثورة وبدأت دعوة القبائل لدعم الثورة وسرعان ما حصل على تأييد كل من الحضنة، الزاب الغربي، وواحتي ليشانة وغيرهم.

أمام تواصل المقاومة لم يعد أمام الفرنسيين سوى حصار الزعاطشة والانتقام من المقاومين حيث بدءوا بقصف أسوار البساتين المحيطة لأحداث فجوة في جدرانها، ووقعت فيما بين7و8 أكتوبر 1849 عدة معارك قتل فيها عدد من الفرنسيين. وأصبح على الفرنسيين اقتحام أسوار القرية الذي حققوه ولم يكن لهم ذلك إلا بفضل المدفعية التي استخدموها للتغلغل داخل الواحة التي أغرتهم خيراتها وثرواتها غير أنهم وجدوا عائقا جديدا تمثل في خندق مليء بالمياه يحيط بالقرية[13]. وفي الليل تمكن ثوار القرية الذين تسللوا إلى معسكر العد ومن إلحاق عدة خسائر به.

وأمام نقص الرصاص استخدم الشيخ بوزيان نواة التمر بجمع كل ثلاث منها مع بعض في ورقة بسيطة من الرصاص[14] وبالمقابل كانت الإمدادات الفرنسية متواصلة حيث جاء الكولونيل lourmel على رأس عدد كبير من القوات وهكذا قوبلت رصاصات التمر بقنابل المدافع [15] وسرعان ما بدأ بقصف الأسوار التي كان بداخلها حوالي ستة ألاف محارب بينما كانت قوات العد وتفوقهم بأكثر من الثلثين. ومما عجل الهجوم الفرنسي الكلي على المنطقة ه وانتشار داء الكوليرا بينهم وإصابة العديد من القوات بالنيران التي واجهتهم في الفتحات التي استخدموها للنفوذ إلى الواحة[16].

غير أن إحداث ثلاث ثغرات حول الواحة عجل باقتحامه وبدأت المقاومة داخل القرية أين أبدت قوات بوزيان بسالة كبيرة واضطرت القوات الفرنسية إلى محاصرة كل منزل بسبب تواصل إطلاق الرصاص.

- **حصار دار بوزيان وقتله**

في هذه الظروف كان بوزيان والشريف والسي موسى وعائلتيهما وبعض المقاتلين مختبئين بدار حسان بن عزوز[17] وبعد مقاومة شديدة تمكنت القوات الفرنسية من قصف أحد جدران المنزل ليفاجأ الفرنسيون بحوالي 150 رجلا وامرأة بداخله ليقتل عددا منهم ويتم إلقاء القبض على الشيخ

بوزيان الذي أمر الجنرال هيربيون بقتله والاحتفاظ برأسه [18] التي بقيت معلقة عدة أيام على إحدى أبواب بسكرة .

الخاتمة: هكذا انتهت هذه المقاومة وهذا الحصار الذي دام حوالي ستة أسابيع، راح ضحيته ما يزيد عن ثمانمائة شخص من مختلف المناطق حيث تحولت الزعاطشة إلى قبلة كل من كانت في نفسه نية المقاومة فقد كانت قوات بوزيان تتزايد في كل مرة. أما الفرنسيون فقد كلفتهم الكثير، حيث أكد المؤرخون أن المعارك الجزئية كلفتهم أكثر بكثير من المواجهة المباشرة عند دخولهم الواحة، وخلال 52 يوما من الحصار قتل منهم 200، جرح 800، دون احتساب عدد ضحايا الكوليرا وبالمقابل فقد نشروا الخراب في كل مكان واضطر بقية السكان وخاصة في ليشانة إلى الاستسلام بعد القضاء على سكان الزعاطشة وإتلافها.[19]

غير أن ما يلفت الانتباه هو الإستراتيجية الإجرامية المتبعة لمواجهة هذه المقاومة والتي تعتبر حرب إبادة جماعية وتصنف في مقدمة الجرائم ضد الإنسانية حيث نلاحظ .

- تعنت فرنسا في رفع الضرائب ابتداء من شهر مارس 1849 من 0.25 فرنك إلى 0.40 فرنك للنخلة الواحدة مع التراجع عن مبدأ إعفاء المرابطين من الضرائب كسياسة استفزازية لسكان المنطقة تدفعهم حتما إلى التذمر بحكم الأوضاع الاقتصادية المتردية وتوقف حياة السكان على محاصيل التمور ففرنسا اتبعت ذلك كطريقة لإشعال النيران في المنطقة لتكون سببا مباشرا لسلب الأراضي وواحات التمور التي أسالت لعاب المعمرين.
- مطالبة رئيس المكتب العربي ببسكرة الضابط "دي بوسكيه" من سكان واحة الزعاطشة تسليم الشيخ بوزيان الذي وصلتهم الأخبار عن استعداداته للثورة فكان ذلك توظيفا للوضع لفرض مبدأ المسؤولية الجماعية وتبريرا لطرقها اللانسانية في التعامل مع الثوار وذويهم

- تمت دعيم القوات الفرنسية المرابطة والتي بلغ عددها أربعة آلاف وأربع مائة وثلاثة وتسعين (4493)جنديا بثمانية آلاف من الجند [20] ناهيك عن العتاد الحربي مع إصدار الأوامر بحصار الواحة تحسبا لأي نجدة تصلها لتكون الإبادة حتمية ومقابلة الأسلحة البيضاء ورصاص أنوية التمر بالمدافع.
- الاعتماد على المناوئين للثوار وخلق النزاعات بين القبائل في اطار سياستها المعهودة " فرق تسد ".
- إعطاء الأوامر بإبادة السكان من أطفال ونساء وشيوخ لترهيب السكان وردع بقية المناطق عن المقاومة.
- حرق المنازل وقطع أشجار النخيل مصدر رزق السكان وتدمير وحرق ما تبقى من سكنات.
- توسيع دائرة الانتقام بمهاجمة واحة "نارة" الواقعة على وادي عبدي بالأوراس حيث استبيحت أراضيها بالقتل والحرق والهدم لتلقى نفس مصير واحة الزعاطشة حيث قطعت أشجارها وغاباتها ونخيلها على يد القائد "كانروبير" الذي ادعى أن سكانها رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم [21].
- التنكيل بالجثث ومحاولة نشر الذعر أوساط السكان وإخضاعهم عسكريا ومعنويا وإبراز فرنسا بصفتها الدولة التي لا تقهر ولا تقاوم حيث نكل الفرنسيون بالجرحى أما فيما يتعلق برأس الشيخ بوزيان فقد تم الاحتفاظ بها حيث ذكر الطبيب Reboud في رسالة بعثها إلى قادته يقول فيه: ". .. هذه هي الظروف التي وجدت فيها رأس بوزيان: كنت قد جمعت مجموعة من الرؤوس التي كانت لازالت جيدة. ..ومن بينها رأس كل من بوزيان، بوبغلة، وشريف تبسة كان قد تم تقديمها إلى الدكتور Vital الذي كان قائدا للأطباء بقسنطينة. .. "، ونقلت رأس بوزيان بعد ذلك إلى المتحف الأنتروبولوجي بباريس [22].

أما بالنسبة للشيخ بوزيان فقد اتبع ه والأخر إستراتيجية عسكرية واجه بها فرنسا حيث:

- اعتمد على دعم القبائل وسرعان ما بدأت القبائل الموالية لثورته بالتوافد مما زاد من قوته خاصة وأن السكان كانوا قد سئموا الأساليب الاستعمارية المطبقة للاستيلاء على أراضيهم.
- كان أساس ثورته الجهاد في سبيل الله لتحرير البلاد من المستعمر الغاشم.
- ركز على مبدأ التشاور مع قادته في اتخاذ القرارات الحاسمة.
- حاول تعويض النقص في السلاح بأساليب رغم بساطتها إلاأنهاكبلت القوات الاستعمارية خسائر جمة.
- جعل من واحة الزعاطشة حصنا منيعا لم يتمكن العد ومن اختراقه إلا بشق الأنفس فمن أسوار البساتين المحيطة بالواحة إلى اتخاذ التدابير التي أعاقت إقامة بطاريات المدفعية إلى خندق مائي يحيط بالقرية كانت تغذيه عين تسمى عين الفوارة، ويمر بالقرية مستديرا حولها، يتراوح عرضه مابين 6الى8 أمتار وعمقه بين 80 و120 مترا ويتم الدخول إلى القرية عبره بواسطة قنطرة من الصخر.

- اعتماد الهجمات المباغتة ليلا على القوات الفرنسية بهدف إرهاق العد ووبث الرعب في أوساطه.
- إشعال النيران في الثغرات التي أحدثها العد وفي أسوار الواحة مما تسبب في عدة إصابات داخل قوات العد وإلى جانب انتشار وباء الكوليرا بينهم.
- مواصلة المقاومة داخل الواحة ثم داخل بيته مما زاد في عزيمة المقاومين الذين قاتلوا إلى جانبه بكل بسالة.

أما فيما يتعلق بأسباب عدم تمكن هذه الثورة من تحقيق هدفها فيذكر"البخاري حمانة" أن ذلك يعود إلى كون هذه الثورة لم تكيف دفاعاتها واستراتيجياتها مع تغير وضع وإستراتيجية العدو، كما أنها جاءت نتيجة ظروف معينة عاشها سكان الواحة تمثلت في بزيادة نسبة الضرائب بالدرجة الأولى إذ سرعان ما اندلعت قبل أن يتم التحضير لها بشكل محكم. ومع ذلك

فقد أسهمت كسابقاتها في زعزعة أمن العد ووإلحاق الخسائر الباهظة بقواته[23]

-بيبليوغرافية:

1)الزبيري محمد العربي، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص51

2) (سعد الله أب والقاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، 1830-1900، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1972، ص 330

3-GARROT, Henri ,.HISTOIRE GENERALE DE L'Algérie,1910, p 885

4-revue africaine1912 , N 56 , OPU , Alger , p 516.

5) العربي إسماعيل، ع، مجلة الدراسات التاريخية، الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة، أكتوبر-نوفمبر 1849، العدد 9، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 156

5- Achille Fillias, L'Algérie ancienne et moderne, 1875, p885

7) سعد الله أب والقاسم، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 291

8- Garrot , H , op cit , p 885

9- ibid. p 885 LOUIS DE BAUDICOURT, La Guerre Et Le Gouvernement,Paris, Sagnier et Bray, Librairie Editeurs, 1853

10-Revue Africaine , op cit , p 505.

11) العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص 51

12- E. Perret, Ncham.O, Récits Algériens (1848-1886), Paris, Blood et Barral Editeurs, p 12

13) العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص 159

14- E. Perret, op cit, p 13

15-Revue Africaine, op cit , p 516

16- pPERRET E.vop-cit,21-22.

17- Achille Fillias, op cit , p 158

18) الزبيري محمد العربي، المرجع السابق، ص 171

19) البخاري حمانة، بعض أسباب فشل ثورة الزعاطشة، مجلة الدراسات التاريخية، ع 9، 1995، ص 170

20) التواتي بومهلة، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، 1837-1934، دار المعرفة، 2012، الجزائر، ص 78

21) أعميراوي أحميدة، زاوية سليم، قاصري محمد السعيد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، 1844-1916، دار الهدى، عين مليلية، الجزائر، 2009، ص 43

22)سعد الله، المرجع السابق، ص 338

23) البخاري حمانة، المرجع السابق، ص 170